ملخص سياسات - سوريا

إرث الحصار: اللاعبون غير الرسميّون في تعافي عربين

تأليف: سنا فاضل

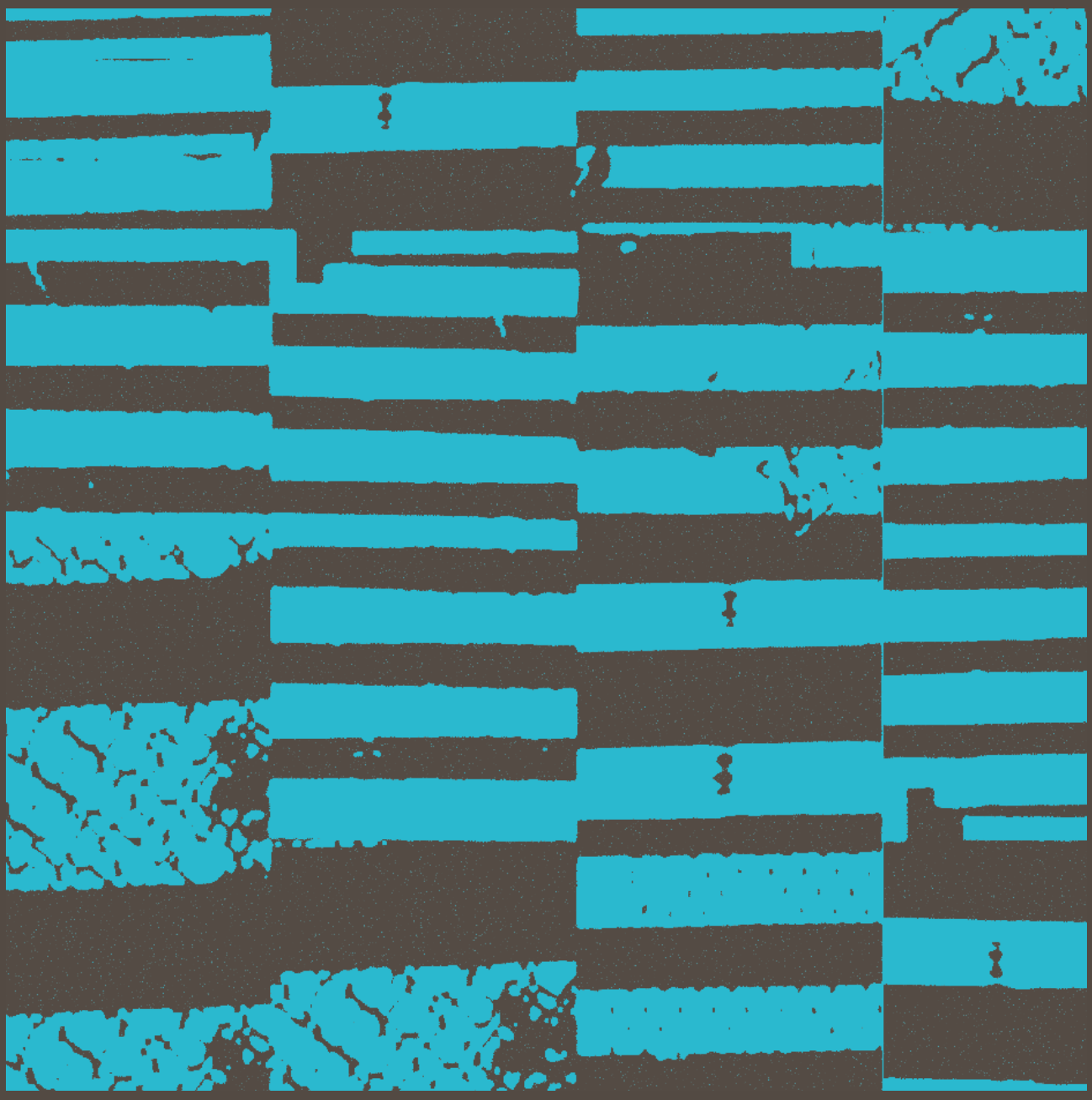

من تأليف:
سنا فاضل، باحثة سوريّة مستقلّة متخصّصة في قضايا التهميش في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. تتناول منشوراتها مجموعةً متنوّعةً من المواضيع مثل تمكين المرأة، والحركات الاجتماعيّة، والحقوق الرقميّة، والخدمات العامّة.

مؤسسة فريدريش إيبرت
صندوق بريد ٦١٠٧-١١
بيروت ١١٠٧-٢٢١٠، لبنان

جميع الحقوق محفوظة، لا يمكن إعادة طبع أو نسخ أو استعمال أي جزءٍ من هذا المنشور من دون إذنٍ خطّي من الناشر.

لا يُسمح باستخدام أي من المنشورات الإعلامية الصادرة عن مؤسسة فريدريش إيبرت لأغراضٍ تجارية من دون الحصول على إذنٍ خطي من مؤسسة فريدريش إيبرت.

تصميم وتنسيق: @FABRIKA.cc

قائمة المحتويات

مقدّمة 2

جغرافيّة الحرب 3

التحكّم والتحيّز في الإدارة 4

انهيار البنية التحتيّة في ظل الأزمة المطوّلة 5

أزمة الطاقة 6

الاستثمار المتعثّر 7

العمل المستمرّ 8

قاعدة المجتمع المدنيّ 9

الخاتمة 10

مقدّمة

شهدت مدينة عربين منذ استعادة النظام السوري السيطرة عليها في عام ٢٠١٨ تزايداً في نشاطها التجاريّ، تجلّى في ظهور مشاريع جديدةٍ وإعادة افتتاح المشاريع القائمة قبل بداية الصراع. أتى هذا الانتعاش مصحوباً بتوجّه نحو إنتاج على نطاقٍ أصغر وشركات تعمل في قطاع الخدمات، ممّا يُمثّل ابتعادًا عن مشهد التصنيع الذي كان سائدًا قبل الحرب حتى عام ٢٠١١. لقد أسهمت قدرة مجتمع عربين على التكيّف في تسريع تعافي المدينة، ممّا مكّنها من استعادة جزءٍ من حيويّتها، وحتى من منافسة المناطق المستقرّة في ضواحي دمشق.

ويُعزى هذا الانتعاش، إلى حدٍّ كبيرٍ إلى البنية التحتيّة التي أُنشئت خلال الحقبة التي سيطرت فيها المعارضة على عربين. وعلى الرغم من أنّها عانت من الدمار والحصار من قبل قوّات النظام خلال تلك المرحلة، فقد رحّبت عربين بالسكان النازحين من مناطق المعارضة في الغوطة الشرقية المحيطة بها، وعملت كمركزٍ حيويٍّ للمجتمع المدني المرتبط بالمعارضة. كانت عربين هدفاً لمشاريع المساعدة الإنسانيّة والتعافي التي تنوّعت بين الدعم الطبي والنفسيّ والبرامج الثقافية وسبل العيش، ممّا استدعى إعادة بناء منشآتها لتستوعب الخدمات الضروريّة لضمان عملها.

فمنذ عام ٢٠١٢، عملت منظّمات المجتمع المدنيّ في عربين كمركزٍ حيويٍّ للمشاركة المجتمعيّة الّتي لعبت دوراً محوريّاً في تعافي المدينة. شارك مجتمع عربين بشكلٍ كبيرٍ في دعم إعادة بناء بعض عناصر البنية التحتيّة للمدينة، بما في ذلك توليد الكهرباء وإدارة الخدمات الحيويّة وتقديم المساعدات الطبيّة. تمّ تنفيذ الكثير من هذه الجهود من خلال منشآتٍ مؤقّتةٍ وتعاوُناتٍ عبر شبكاتٍ غير رسميّةٍ، سواءً داخل المدينة أو خارجها. مع ذلك، وعلى الرغم من أنّ الجهود المحليّة كانت أساسيّةً أثناء الصراع ومرحلة التعافي الأوليّ، فإنّ الغياب المستمر للتخطيط والدعم الحكوميّ من المرجّح أن يؤدّي إلى خلق أنظمةٍ غير مستدامةٍ.

تبحث هذه الورقة في كيف ساهمت الأنشطة التجاريّة والشبكات، الّتي أُنشئت خلال سنوات سيطرة المعارضة، في تعافي عربين وصمودها بعد استعادتها من قبل النظام السوريّ في عام ٢٠١٨. بالإضافة إلى ذلك، تدرس الورقة كيف نجحت عربين - وسط الصراع والحصار واستعادة السيطرة اللاحقة - في تنشيط حركتها التجاريّة وإعادة تأسيس البنى التحتيّة الأساسيّة. كما تُسلّط الورقة الضوء على قدرة السكان المحليّين في إدارة الخدمات الحيويّة بشكلٍ مستقلٍّ مثل الكهرباء والمياه والصرف الصحيّ والرعاية الصحّيّة. يقيّم هذا التقرير أيضاً، بشكلٍ نقديٍّ، استدامة هذه الحلول، ويبحث في دور التخطيط الحكوميّ في هذا السياق.

لقد استخدمنا منهجيّاتٍ متنوّعةً لدراسة حالة عربين بعد الصراع. من خلال الملاحظات الميدانيّة، قمنا بتقييم الوضع الحاليّ للبنية التحتيّة والأنشطة التجاريّة وعمل المجتمع المدنيّ، وتوثيق التغييرات المرئيّة والتطورات الجارية. كما ساعدتنا المراجعة الشاملة للأدبيّات الأكاديميّة والتقارير والوثائق المتعلّقة بإعادة الإعمار بعد الصراع، وصمود المجتمع وأدوار المجتمع المدنيّ، وإدارة الأزمات، في فهمنا للسياق وتوجيه بحثِنا. لقد أجرينا عشرين مقابلةً بين عامَيّ ٢٠١٩ و٢٠٢٣ مع السكان المحليّين وقادة المجتمع وأصحاب الأعمال وأعضاء المجتمع المدنيّ، والّتي قدّمت لنا شهاداتٍ مباشرةً لا تقدّر بثمن، وتجارب شخصيّةً ورؤىً حول التحدّيات الّتي واجهتهُم، كما عن الاستراتيجيّات المستخدمة، والديناميّات المتغيرة للبنية التحتيّة والوضع الاقتصادي في عربين خلال وبعد الحرب.

جغرافيّة الحرب

جعل موقع عربين داخل الغوطة الشرقيّة، والّتي كانت معقل المعارضة المسلّحة السابق بالقرب من دمشق، منها نقطةً مهمّة واستراتيجيّةً وأكثر أماناً نسبيّاً من المدن المحيطة بها خلال الحرب. كان ذلك نظراً لقربها من طريق المتحلّق الجنوبيّ، بالإضافة إلى مزارعها المسطّحة الّتي تُبعدها عن خطوط المواجهة مع النظام في دمشق [1] [2]. وعلى عكس المدن القريبة من عربين، كحرستا وجوبر وزملكا، والّتي امتدّت فيها خطوط المواجهة مع قوات النظام إلى المراكز السكنيّة، ظلّ المركز السكنيّ لعربين آمنا نسبيّاً من الدمار الهائل أثناء الحرب. عانت مدنٌ أخرى قريبةٌ، مثل جوبر، من تدمير يصل إلى ٩٠ بالمائة من مساحتها، بينما تعرّضت مباني عربين لأضرارٍ جزئيّةٍ فقط [3]. كما وتمركزت عربين كملجأ للنازحين من مدنٍ أخرى في الغوطة الشرقيّة، والّذين اختاروا البقاء خارج المناطق الّتي يسيطر عليها النظام.[4]

ساعد عاملٌ حاسمٌ آخر عربين على أن تُصبح مركزاً لحركةِ البضائع والأشخاص أثناء الصراع، وهو نفقٌ حفره الثوّار لنقل البضائع من القابون، والّتي كانت تحت حصارٍ جزئيٍّ. لعب النفق دوراً اساسيّاً في إيصال السلع الأساسيّة والأغذية لدعم سكّان عربين والمناطق المحيطة بها خلال الصراع، اذ كان يربط عربين المحاصرة والغوطة الشرقيّة إلى الغرب مع بلدات القابون وبرزة شبه المحاصرة، وبالتالي المتّصلة بالمناطق الخاضعة لسيطرة النظام.

غادر عربين العديد من الأفراد المرتبطين بقوّات المعارضة المسلّحة، كما وشخصيّاتٌ سياسيّةٌ ومن المجتمع المدني، بعد أن استعاد النظام السيطرة عليها في عام ٢٠١٨، وانتقلوا إلى إدلب وريف حماة. بقيَت نسبةٌ صغيرةٌ من القاطنين الأصليّين والمهجّرين داخليّا - ممّن كانوا مقيمين في عربين أثناء الصراع - في المنطقة بعد استعادتها.

على الرغم من إعادة فتح الطريق الرئيسيّ بين دمشق وعربين بعد فترةٍ وجيزةٍ من استعادة النظام للسيطرة على الغوطة الشرقيّة، إلا أنّ الوصول إلى عربين ظلّ صعباً إلى حدٍّ كبيرٍ حتّى عام ٢٠٢١ بسبب نقاط التفتيش والقوانين الصارمة الّتي فرضها النظام عليها [5] [6]. تقع البلدة بالقرب من حاجز البانوراما سيّء السمعة، وكان على الأشخاص الراغبين بدخولها تقديم وثائق هويّةٍ وأوراقاً تثبت إقامتهم في عربين[7]. بالإضافة إلى ذلك، لم يتمكّن أولئك ممّن دخلوا البلدة من المغادرة إلّا عبر نفس الطريق، مما جعل حركة دخول وخروج الناس من وإلى البلدة صعبةً للغاية. ومع مرور الوقت، تحسّنت الأوضاع تدريجيّاً وانتهت التحقيقات مع الأفراد الّذين قاموا بالمصالحة مع النظام، وتمكّن النظام من ترسيخ سيطرته على الغوطة الشرقيّة [8].

بعد استعادة النظام للمنطقة، عاد ما يقدّر بـ ٢١,٩٧٦ نسمةً إلى عربين، أي ما يقرب ٢٥ بالمائة من عدد القاطنين فيها قبل الحرب[9] [10]، [11].كانت إزالة الأنقاض ضروريّةً لإعادة فتح الطرق وتمكين الناس من التنقل. ولكن، تمّ ترك السكان إمّا لإزالة الأنقاض من الشوارع الخلفيّة بأنفسهم أو إلى دفع أموالٍ للبلديّة للقيام بهذه الأعمال [12]. في معظم الحالات، لا تشارك البلدية في هذه العمليّات، بل تنظّمُها المنظّمات غير الحكوميّة. ومع ذلك، غالباً ما تَنسُب الإدارات المحليّة الفضل لنفسها في وسائل الإعلام الحكومية عند انتهاء المهمّة [13]، [14].

خضع قطاع النقل في الغوطة لتغييرات جذريّة خلال فترة الصراع، حيث اختلف المشهد تماماً بحلول الوقت الذي توقف فيه القتال محليّاً. ابتكر من بقي من السكان في الغوطة الشرقيّة خلال تلك الفترة نظامَ نقلٍ يعتمد على السيارات الخاصّة والباصات الصغيرة (مكيروباص)، والسيارات الخاصة لتأمين خدمات التنقّل داخل المنطقة. وبعد استيلاء النظام على المنطقة مجدّداً، توجّه التركيز نحو تأمين النقل من وإلى مدينة دمشق، وتمّ توظيف نفس المركبات لهذا الغرض. تعتمد سيارات الأجرة الخاصّة والحافلات الصغيرة (الميكروباصات) على الدعم الحكوميّ للوقود، ممّا أدّى إلى تقييد حركتها أو زيادة أسعار خدماتها عند شراء الوقود من السوق السوداء[15]. كما وقد قام العديد من مقدّمي خدمات النقل بتغيير أماكن إقامتهم ومساراتهم خلال فترة الصراع، وهي ظاهرةٌ امتدّت إلى فترة ما بعد الصراع وساهمت في حدّ حركة التنقّل بين السكّان.

1 تشير كلمة الغوطة إلى منطقة البساتين التاريخية المحيطة بدمشق، والتي تتألف في الأساس من قرى اندمجت إلى حد كبير كامتداد للمدينة خلال التسعينيات. وقد أدى هذا التغيير إلى تحويل المنطقة إلى شبه حضرية، يسكنها سكان من الطبقة المتوسطة الدنيا والذين يعتمدون في معيشتهم بشكل أساسي على الحِرف والزراعة والعقارات والتصنيع. وكان لدى الغوطة ثقل سياسي كبير كمعقل للاحتجاجات ومقاتلي المعارضة.

2 أو «المتحلق الجنوبي»، وهو طريق يقع شرق مدينة دمشق، ويربط الطريق الدولي M5 بشمال المدينة وجنوبها.

3 بي بي سي نيوز، «الغوطة الشرقية في سوريا: الأحياء تحت القصف»، ٢٩ آذار ٢٠١٨ https://www.bbc.com/news/world-middle-east-43154146

4 شهدت منطقتا القابون وبرزة شبه المحاصرتين تقييداً في الحركة بينهما والمناطق الخاضعة لسيطرة النظام، ففي حين سُمح لهما بإدخال كميات قليلة من المواد الغذائية، لم يُسمح لبعض الأدوية والأدوات بالمرور عبر الحواجز المقامة على مداخلهما.

5 عنب بلدي، «محافظة ريف دمشق تفتتح طريق عربين الرئيسي المتصل بحرستا»، ١٩ حزيران ٢٠١٩ https://shorturl.at/HLJsj

6 معظمهم من المقيمين وأصحاب الأعمال في عربين، ومنهم من ينحدرون من مدينة دمشق.

7 محافظة دمشق، «بانوراما حرب تشرين التحريرية في دمشق»، آخر دخول للمدينة في ١٩ حزيران ٢٠٢٣ http://www.damascus.gov.sy/Home/gov/Damascus/Panorama

8 مقابلة مع مقاتل سابق في قوات المعارضة من عربين في أيار ٢٠٢٢.

9 مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشئون الإنسانية في سوريا. نظرة عامة على الاحتياجات الإنسانية في الجمهورية العربية السورية. كانون الأول ٢٠٢٢. https://www.humanitarianresponse.info/sites/www.humanitarianresponse.info/files/documents/files/hno_2023-rev-1.12_1.pdf.

10 تقدير لعدد سكان عربين بنحو ٨٥,٥٩٥ نسمة حسب التعداد العام للسكان عام ٢٠٠٤.

11 مسعود عبد المنعم: «مشترکو أمبيرات بالمدينة ١٢ ألفًا.. رئيس مجلس عربين لـ«الوطن»: مستثمرو أمبيرات قدموا طلباتهم للترخيص والمحافظة لم تحسم أمرهم بعد». الوطن ٣١ آذار ٢٠٢٤. https://alwatan.sy/archives/384291

12 مقابلة مع رجل من عربين، كانون الأول ٢٠١٩

13 سوق الأمم المتحدة العالمية: «طلب إبداء الاهتمام بإزالة الأنقاض والحطام في مدينة عربين من برنامج الأمم المتحدة في نيروبي وبرنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية في سوريا.» ١٥ كانون الأول ٢٠٢٢ https://www.ungm.org/Public/Notice/188876.

14 «المجلس البلدي بالتعاون مع المجتمع المدني والوضع الخدمي في عربين» سانا ٢٠ تشرين الأول ٢٠١٩. https://www.sana.sy/?p=1038651.

15 في حين بلغ سعر ليتر الوقود المدعوم ١١,٥٠٠ ليرة سورية، بلغ سعره في السوق السوداء نحو ٢٠ ألف ليرة سورية.

رغم التحديات والقيود الأمنيّة، اعتَبر سكّان عربين والنازحون داخليّاً إعادة فتح الطرق وربط مدينتهم بالعاصمة أولويّةً أساسيّةً. فقد مكّنهم ذلك من الوصول إلى الخدمات الطبيّة والإمدادات الغذائيّة التي كانت سابقاً بعيدة المنال أو باهظة الثمن، دافعاً العديد من النازحين إلى التفكير في العودة [16].

التحكّم والتحيّز في الإدارة

أولَت الدولة الأهميّة لاتّباع نموذج التحكّم والسيطرة على هياكل السلطة، الأمر الذي تجلّى في حَوْكمة غير متّسقة ومنحازة عبر المناطق التي تمّت استعادتها من قِبل النظام. فقد تمّ وَضع حواجز للأمن العسكريّ عند مداخل البلدة بعد عودة النظام اليها. تعكس هذه الحواجز نهج النظام الصارم، حيث تتمّ معاملة المواطنين المارّين بريبةٍ، وتعرّضهم في كثير من الأحيان لمضايقاتٍ غير مبرّرة. علاوةً على ذلك، تعتمد هذه الحواجز بشكلٍ كبيرٍ على الرشوة المفروضة على الشاحنات التجاريّة، مما يزيد من تعقيد حركتها وبالتالي من تكلفة النقل أيضاً. وتأكيداً على اتّباع نموذج السيطرة، اعتمدت الدولة إعادة فتْح مركز الشرطة وسجل العقارات في عربين قبل إعادة فتْح المخابز أو المدارس [17، 18].

غالباً ما تُتَّهم الإدارة المحليّة في عربين بعدم الفعاليّة والتحيّز، وذلك بسبب عوامل مختلفةٍ مثل نقص الموارد والفساد والتدخّلات السياسيّة. قامت محافظة ريف دمشق بإعادة فتح جميع البلديّات في قرى وبلدات الغوطة الشرقية، وتمّ انتخاب مجالس بلديّةٍ جديدةٍ لإدارة القضايا اليوميّة والإشراف على عمليّة إعادة الإعمار في مناطقها، ولكن عملية الانتخاب شابَتها المحسوبيّة [19].

على الرغم من وجود الدولة في عربين وغيرها من المناطق المُستعادة، إلّا أنّ الخدمات التي تقدّمها تظلُّ إلى حدٍّ كبيرٍ رمزيّةً وغير فعّالةٍ وظيفيّاً. فقبل الحرب، ازدهرت عربين كمركزٍ للأعمال الصناعيّة الصغيرة (الورش) والمستودعات بسبب قربها من دمشق. ولكن بعد استعادة المنطقة، واجهت عربين عقباتٍ بسبب ضعف البنية التحتيّة. في الحين الذي تُعتبر هذه النواقص مشكلةً مماثلةً في العديد من المناطق التي يُسيطر عليها النظام، يعكس ذلك تحيّزًا ملحوظًا في وضع هذه المناطق حيث أعطى النظام للمناطق الموالية أولويّةً عند تخصيص الخدمات الوظيفيّة [20، 21]. نتيجةً لذلك، يشعر السكّان في المواقع المُستعادة من سيطرة المعارضة بعدم الدعم أو الإهمال أو حتى العِقاب. ومع ذلك، تمكّنت عربين من الحفاظ على أنظمة الخدمة البديلة التي تمّ إنشاؤها أثناء الحصار والاستفادة من الموارد المحليّة بشكلٍ مستقلٍّ.

كان توفّر المياه أمراً بالغ الأهميّة بالنسبة لسكّان عربين للاستثمار به بهدف تحسين البنية التحتيّة للبلدة. ترك سكّان الغوطة خلال الحصار خطوط المياه التالفة دون إصلاح، وقاموا باستبدالها وتركيب أنابيب مياه جديدةٍ خارج المباني. فقد كان إصلاح أنابيب المياه القديمة معقّداً ويستغرق وقتاً طويلاً،

16 تسببت عملية تهريب البضائع عبر الأنفاق في تكاليف إضافية وتقليص توصيل كمية البضائع بسبب تعقيد عملية التهريب.

17 ناحية عربين تقدم خدماتها على مدار الساعة. سانا في ٦ نيسان ٢٠١٨ https:// www.sana.sy/?p=735370

18 مكتب التوثيق العقاري في عربين: العودة إلى التحديد والتحرير؟ - التقرير السوري في ١٦ تشرين الثاني ٢٠٢١ - https://shorturl.at/GmCyE.

19 أيمن الدسوقي، «حوكمة الإدارات المحلية: ماذا تخبرنا نتائج انتخابات الإدارة المحلية؟»، مركز عمران للدراسات الاستراتيجية، ١٥ تشرين الثاني ٢٠١٨، https:// shorturl.at/9f4yX

20 لقد أصبح نقص الكهرباء والمياه وخفض الدعم وانخفاض جودة الخدمة في المرافق الحكومية من الأمور المعتادة على نطاق واسع. ومع ذلك، هناك تفاوت ملحوظ في توفير المياه والكهرباء، حيث تحظى المناطق الأكثر ثراءً والموالية للنظام بمعاملة تفضيلية. على سبيل المثال، تتلقى المساكن العسكرية القريبة في ضاحية الأسد حوالي ٨ ساعات من تغذية الكهرباء يوميًا، في حين تتلقى المناطق المستعادة في الغوطة الشرقية من ساعة إلى ساعتين.

21 مقابلات مع سكان عربين والغوطة الشرقية في عامي ٢٠٢٢ و٢٠٢٣.

جاعلاً من استبدالِها أو تركيب أنابيب جديدةٍ حلّاً أسهل التنفيذ. بعد استعادة السيطرة على البلدة، تمكّنت شركة المياه العامة من استعادة ١٤ بئراً، ممّا كان يزوّد المدينة بـ ١٥٠٠ مترٍ مربّعٍ من مياه الشرب يومياً. مع ذلك، فإنّ هذه المرافِق ليست كافيةً لسكّان عربين، خاصّةً أنّ ١١ بئرًا منها لا تزال خارج الخدمة حاليّاً [22]. كما أنّ نظام الصّرف الصحيّ محدودٌ بسبب الأنابيب التالفة، مما دفع السكّان المحليّين إلى الارتجال عن طريق تركيب خطوطٍ جديدةٍ واستخدام مرافق صرفٍ غير مجهّزةٍ بشكلٍ كافٍ [23].

انهيار البنية التحتيّة في ظل الأزمة المطوّلة

في خضمّ أزمةٍ اقتصاديّةٍ مطوّلةٍ، تُركت العديد من قطاعات الخدمات، مثل الرعاية الصحيّة والنقل، للمنظّمات غير الحكوميّة الدوليّة والحلول الخاصّة في جميع أنحاء سوريا. قبل الحرب، كانت الخدمات الصحيّة تُقدَّم من قِبل مستوصفاتٍ حكوميّةٍ وعياداتٍ طبيّةٍ خاصّة. ولكنّ أثناء الحرب، تولّى المجتمع المدنيّ المحليّ توفير خدمات الرعاية الصحيّة، ممولاً من المنظمات الإنسانيّة الدوليّة والمحليّة. تمّ استعادة بعض الخدمات الصحيّة التي كانت تُقدّمها الدولة بعد إعادة السيطرة على البلدة، فاستأنف المستوصف الحكوميّ في عربين عمليّاته وخدماته مثل التطعيم المجانيّ والرعاية الصحيّة الإنجابيّة [24،25]. ومع غياب خدمات طبيّة حكوميّة أخرى في عربين، أُعيد بناء مستشفى في حرستا المُجاورة بدعمٍ من اليابان، وكان يقصدها سكّان عربين لقربها منهم. تمكّن عددٌ قليل من مقدّمي الخدمات الصحيّة الخاصّة والصيدليّات والعيادات من مواصلة العمل طوال الحصار، وأصبحوا أكثر نشاطًا بعد انتهائه. على الرغم من أنّ الخدمات الطبيّة في سوريا أقلّ تكلفةً من تلك الموجودة في البلدان الأخرى بسبب الإنتاج المحليّ منخفض التلكفة لبعض المستلزمات، إلّا أنّ النظام الصحيّ في البلاد تراجَع بسبب نقص بعض الأدوية والمعدات، خاصة بعد وقوع الأزمة الاقتصاديّة واستمرارها. في عربين، تُعتبر قدرة الوصول الى موزّدي الإمدادات الطبيّة والأدوية تحديًا كبيراً [26].

يُعتبر الخبز عنصراً أساسيّاً في النظام الغذائي السوري، ويعتمد العديد من الناس على المخابز الحكوميّة ونصف الحكوميّة (المشتركة) للحصول على الخبز المدعوم[27]. مع ذلك، وبسبب الأزمة الاقتصاديّة، لم يكن هناك سوى مخبزٍ حكوميٍّ واحدٍ يعمل في عربين، في حين أنّ المخابز الأخرى كانت مملوكةً من القطاع الخاص، علماً أنّها تعتمد على القمح المدعوم من الدولة، لكنّها تبيع الخبز بسعرٍ أعلى[28]. يوجد مخبزٌ واحدٌ فقط يقدّم الخبز بأسعارٍ مدعومةٍ ويخدم عربين والمناطق المجاورة لها، لكنّ الزبائن يُضطرّون للوقوف في طوابير طويلةٍ لساعاتٍ من أجل الحصول على الخبز المدعوم، وهو مشهدٌ شائعٌ في العديد من المناطق الخاضعة لسيطرة النظام.

أصبحت شركات الاتّصالات الخاصّة أساسيّةً بشكلٍ متزايدٍ لتوفير الإنترنت وإجراء المكالمات، بالأخصّ بعد تركيب أبراج خلويّةٍ جديدةٍ لتحلّ مكان الأبراج القديمة. سُرقت الأبراج القديمة خلال فترة الصراع، ممّا أدّى إلى فقدان تغطية شبكة الهواتف المحمولة. لا يزال العديد من الناس في عربين بدون وسائل اتّصالٍ أساسيّةٍ (مثل الهواتف الأرضية والإنترنت المحمول) حيث لم تقم شركة الاتصالات العامّة بعد بإصلاح خطوطها بشكلٍ كافٍ. كما ولا تزال اتّصالات الخطوط الأرضية، والتي تُوفّر شبكات الواي-فاي عبر تقنيّة ADSL بأسعارٍ معقولةٍ، غير متوفّرة في العديد من مناطق عربين.

خلال سنوات الصراع، تمكّنت معظم المدارس من الاستمرار في العمل تحت الحصار، وأمست تحت الإشراف الكامل لوزارة التربية والتعليم بحلول عام ٢٠١٩. ساهم العديد من السكان المحليّين في إعادة تأهيل مدارسهم الابتدائيّة والثانويّة العامّة من خلال توظيف مهاراتِهم كحرفيّين ونجّارين لإصلاح الكراسي والمكاتب وغيرها من المرافق. مع ذلك، وكما هو الحال في العديد من المناطق الأخرى، لا يزال هناك نقصٌ في المعلّمين لتلبية حاجات ما يُقدّر بنحو ١١٠٠٠ طالب في عربين[29]. لسدّ هذه الثغرة، استثمر السكّان في مدرستين خاصّتين، إحداهما مرتبطة بالكنيسة المحليّة وتخدم السكّان المسيحيّين وغيرهم، والأخرى لها ارتباطٌ وطيدٌ بمنظّمة القبيسيّات الإسلاميّة [30،31،32].

22 مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشئون الإنسانية في سوريا. نظرة عامة على الاحتياجات الإنسانية: الجمهورية العربية السورية، كانون الأول ٢٠٢٢ - https://www.humanitarianresponse.info/sites/www.humanitarianresponse.info/files/documents/files/hno_2023-rev-1.12_1.pdf.

23 معهد الشرق الأوسط وإيتانا سوريا. اليأس والانحطاط: الغوطة الشرقية بعد ١٨ شهرًا من الحكم الجديد للنظام. تشرين الثاني ٢٠١٩. https://www.mei.edu/publications/despair-and-decay-east-ghouta-after-18-months-re-newed-regime-rule.

24 كانت لقاحات للأطفال متاحة من خلال المستشفيات الحكومية خلال الحصار بفضل الجهود الدؤوبة لموظفي الحكومة المحلية الذين حافظوا على علاقاتهم مع الوزارات الحكومية.

25 عمل المستشفيات الحكومية في سوريا ممول من منظمة الصحة العالمية وصندوق الأمم المتحدة للطفولة (اليونيسيف)

26 مقابلة مع صيدلي في عربين.

27 المخابز شبه الحكومية عادة ما يتم تمويلها من قبل الدولة ويديرها مستثمرون من القطاع الخاص وتبيع الخبز بالسعر الذي تحدده الدولة.

28 في حين يبلغ سعر كيلو الخبز المدعوم ٢٠٠ ليرة سورية، يبلغ سعره في المخابز الخاصة ٢٠٠٠ ليرة سورية وأكثر.

29 تحسن تدريجي في الخدمات في عربين.. والأهالي يطالبون بالمزيد. سانا ٢٢ تشرين الأول ٢٠١٩ https://www.sana.sy/?p=1040298

30 «القبيسيات هي منظمة نسائية إسلامية تأسست في سوريا وانتشرت إلى دول عربية أخرى وخارجها.

31 سيفان، سمير. «منظمة القبيسيات وعلاقتها بالنظام السوري». مركز حرمون للدراسات المعاصرة، ٦ كانون الثاني ٢٠٢٣

32 ملاحظات المؤلف في نيسان ٢٠٢٣ في زيارة إلى مدرسة فجر الأمل - عربين.

أزمة الطاقة

في حين يتطلّب توفير المرافق تعاوناً بين الدولة والمنظّمات غير الحكوميّة الدوليّة والمجتمع المدني، تمكّن القطاع الخاصّ من تلبية بعض احتياجات الناس في عربين بدعمٍ حكوميٍّ ضئيل. انفصلت المدينة تماماً عن شبكة الكهرباء الرئيسيّة في سوريا عند سيطرة المعارضة على عربين في عام ٢٠١٢، ممّا دفع السكّان إلى إيجاد طرقٍ أخرى للحصول على الكهرباء. بدأ الناس والشركات، في جميع أنحاء الغوطة الشرقيّة، باستخدام نظام يُسمّى بنظام «الأمبيرات»، حيث يستثمر فردٌ واحدٌ في مولّدٍ كهربائيٍّ كبيرٍ ثم يبيع الطاقة المولّدة للأُسر مقابل رسومٍ تعتمد إمّا على استهلاك الكيلووات (إذا وُجِد عدّادٌ) أو على اشتراكٍ ذي سعرٍ موحّد «مقطوع».

مع دخول قوّات النظام في عام ٢٠١٨، بدأت شركة الكهرباء العامّة بتزويد المنطقة بنحو ١٢ بالمائة من طاقتها السابقة، مستخدمةً ستّ محوّلاتٍ فقط لتوفير ساعةٍ واحدةٍ من الكهرباء يوميّاً[33]. كان الجهد المتقلّب لهذه الكهرباء غير موثوقٍ به للاستخدام المتواصل، ممّا حصر فائدتها بشكلٍ أساسيٍّ في شحن البطّاريّات. لذلك، استمرّ السكّان بالاعتماد على نظام الأمبيرات لتلبية احتياجاتهم الأخرى من الطاقة.

يتمتّع هذا النظام بإيجابيّاتٍ وسلبياتٍ على حدٍّ سواء. فمن ناحيةٍ، يدفع سكّان عربين مبلغاً كبيراً من دخلهم مقابل اشتراكاتهم في نظام الأمبيرات، ممّا يحدّ من القدرة على تحمّل تكاليف الكهرباء[34]. ومن ناحيةٍ أخرى، يوفّر وجود نظام الأمبيرات بديلاً يعوّض عن نقص إمدادات الكهرباء الحكوميّة. يعرب سكّان دمشق، حيث لم تكن معظم الأحياء محاصرةً وبالتالي لم تضطّر إلى تركيب المولّدات الخاصّة، عن حسدهم تجاه نظام الأمبيرات في المناطق المُستعادة تحت سيطرة النظام[35].

وقد مكّن هذا النظام المزدوج مجموعةً من المستفيدين المحليّين الّذين استخدموا علاقاتهم بقوّات النظام لتأمين الوقود خلال سنوات الحصار. واصل هؤلاء الاستثمار في هذه «الشراكة» بعد استعادة المدينة وطوّروا احتكاراً للمولّدات المستخدمة في نظام الأمبيرات. تُعرض أسماء عائلاتهم بشكلٍ بارزٍ على صناديق الكهرباء الموجودة بالقرب من المكاتب الصغيرة حيث يتمّ جمع الرسوم وإدارة الاشتراكات.

هناك خيارٌ آخر للحصول على الطاقة من القطاع الخاص، وهو الاعتماد على الألواح الشمسيّة. مع ذلك، فإنّ تركيب الألواح الشمسيّة يعدّ استثماراً كبيراً لا يستطيع جميع السكّان تحمّله، حيث تبدأ التكاليف من عشرة ملايين ليرةٍ سوريّةٍ لنظامٍ منزلي أساسيٍّ، أي ما يعادل حوالي ٧٠٠ دولار اعتباراً من تموز ٢٠٢٤. ويبلغ متوسّط الراتب الشهري للعاملين في القطاع الخاص حوالي ٨٠٠ ألف ليرةٍ سوريّة، ممّا يجعل حلول الطاقة الشمسيّة بعيدةً عن متناول الكثيرين[36،37].

تشكّل ندرة الوقود والكهرباء تحدّياً كبيراً للمستثمرين التجاريّين. وتُعدّ حلول الطاقة البديلة أحد الخيارات المحدودة الّتي يمكن للناس الاعتماد عليها لاستمرار عملهم. فيتمّ استخدام الطاقة الشمسيّة ونظام الأمبيرات في المقام الأوّل لأجهزة التبريد والآلات الخفيفة. ومع ذلك، يُرغم أصحاب الورش الصناعيّة، مثل النجارة وتصنيع الأثاث، على الاستثمار في مولّدات خاصّةٍ لتشغيل آلاتهم الثقيلة. تقوم بعض الورش بإنشاء أنظمةٍ هجينةٍ لإنتاج الطاقة لتقليل تكاليفها وتلبية احتياجاتها.

غالبًا ما تواجه الشركات تكاليف إنتاجٍ مرتفعةً بسبب رسوم التأسيس الأوليّة المرتبطة بأنظمة الطاقة البديلة. حتى وبعد التركيب، هناك تكاليف مستمرّةٌ إضافيّةٌ مرتبطةٌ بالصيانة، والحفاظ على البطاريّات واستبدالها، والمحرّكات المتخصصة للمعدّات ذات الاستهلاك المنخفض (low voltage). ومع ذلك، فإنّ توافر خيارات الطاقة الخاصّة مثل نظام الأمبيرات يمنح عربين ميزةً نسبيّةً من حيث الوصول إلى الطاقة، مستقطبةً بالتالي الصفقات التجاريّة من الشركات في دمشق وخاصّةً في قطاع انتاج الملابس، حيث يقتصر هذا القطاع على الطلبات الموسميّة التي لا يمكن تأخيرها.

33 ملاحظات المؤلف في نيسان ٢٠٢٣

34 تبلغ التكلفة الدنيا لتشغيل ثلاث مصابيح وشحن بطارية ٢٠٠ ألف ليرة سورية (نحو ١٥ دولاراً أميركي)، وهي تكلفة شهرية مرتفعة إلى حد كبير مقارنة بأجور السوريين التي قد لا تتجاوز ٢٠ دولاراً أميركياً شهرياً لموظف حكومي.

35 بيه الشريف، فادي. «انتقادات لزيادة «الأمبير» العشوائية في الأحياء وزيادة ساعات التقنين لأكثر من ١٠ ساعات يومياً!.. مدير شركة الكهرباء رداً على أعضاء مجلس العاصمة: زيادة ساعات التقنين بسبب الشتاء. الوطن، ١٧ كانون الثاني ٢٠٢٤. https://alwatan.sy/archives/375361

36 في عام ٢٠٢٢، تغطي هذه التكلفة عادةً رسوم التركيب، ومحول الطاقة، والبطارية، والكابلات، والألواح.

37 العلي، جلنار. «فارق أجور اليد العاملة بين دمشق وباقي المحافظات يصل إلى ٣٠٠ ألف.. الفائدة... قريط لـ«الوطن»: لأن اليد العاملة في دمشق أكثر مهارة والتكاليف الإدارية أعلى من غيرها». الوطن، ٩ تشرين الأول ٢٠٢٣. https://al-watan.sy/archives/363872

الاستثمار المتعثّر

لم تتمكّن ميزة توفّر الطاقة من تعويض التحدّيات الّتي تفرضها البنية التحتيّة للاتصالات والنقل، بالإضافة إلى التكلفة الكبيرة لإعادة تأهيل الممتلكات. فأصبحت عربين أقل جاذبيّةً، سواءً للسكَن أو للاستثمارات التجاريّة. مع ذلك، لا يزال بعض المستثمرين الخارجيّين مهتمّين بالمنطقة، على الرغم من تبدّل أعدادهم وخصائصهم منذ ما قبل الصراع. فقد حلّت شركاتٌ أصغر وأكثر محليّةً مكان الاستثمارات الخارجيّة واسعة النطاق الّتي كانت سائدةً في السابق.

خلال العقد الأول من الألفيّة الجديدة، شهدت عربين طفرةً اقتصاديّة تعزّزت بشكلٍ أكبر بافتتاح الطريق السريع الجنوبي (المتحلّق الجنوبيّ)، وبطريقٍ جديدٍ يصلها بالطريق السريع M5 في عام ٢٠٠٩. أصبحت البلدة تقع على طول طريقٍ مكّن الشاحنات والسيارات الّتي تنقل البضائع من دمشق من تجاوز الغوطة الشرقيّة والوصول إلى وجهتها في وقتٍ أقصر. وبذلك، تمكّنت عربين من الجمع بين نوعيّ التسهيلات هاتين، على عكس المناطق الأخرى في الغوطة الشرقيّة المليئة إما بالورش الصناعيّة أو المستودعات، ممّا جعلها وجهةً جذّابة للتجّار من دمشق قبل الحرب. وبفضل مساحاتها المفتوحة الواسعة، سرعان ما أصبحت المدينة مركزاً للمستودعات الكبيرة المملوكة لمجموعةٍ متنوّعةٍ من شركات التجارة والتوزيع، بدءاً بتلك التي تتعامل مع الآلات الثقيلة والمنتجات الغذائيّة ووصلاً لتلك المعنيّة بالمعدات الحسّاسة[38]. بالإضافة إلى ذلك، كانت تفتخر عربين باستضافتها لمصانع الأغذية، كما استضافتها لقطاعٍ طبيٍّ مزدهرٍ يتمّمه مستشفىً خاصٌّ وعياداتٌ متعدّدةٌ ومختبَرات فحوصاتٍ طبيّةٍ.

انخفضت الأنشطة الاقتصاديّة بشكلٍ كبيرٍ خلال فترة الصراع، ولكن استمرّت عربين في توفير الملابس والمنتجات الغذائيّة لبلداتٍ أخرى في الغوطة الشرقيّة. ولأنها تقع بعيداً عن خطوط المواجهة، كانت بمثابة ملاذٍ أكثر أماناً للشركات مقارنةً بأماكن أخرى في الغوطة، وخاصّةً تلك التي تعمل في النجارة والخياطة وتصنيع الأغذية.

شهدت عربين، بعد استعادتها، انتعاشاً في مجموعةٍ متنوّعة من الشركات، خاصّةً في قطاع الصناعات الغذائيّة، مع التركيز على مصانع التعليب مثل «الغوطة» و«فور سيزونز» و«زهر البستان». من بين المرافق الناجحة بشكلٍ خاصٍّ مصنع «الدُرّة». تأسّس المصنع كشركةٍ عائليّة في عام ٢٠٠٠ من قِبل عائلة محليّةٍ بارزةٍ، واضطر الانتقال إلى مصر والأردن عند وقوع الحرب[39]. تمّت إعادة تأهيل المصنع واستئناف الإنتاج بعد تراجع العمليّات العسكريّة في المنطقة، مع تركيزٍ أساسيٍّ على سوق التصدير. استفاد هذا التحوّل الاستراتيجيّ من أسعار الصرف المواتية، ممّا مكّن الشركة من دعم نفسها على الرغم من الخسائر الناجمة عن التحدّيات مثل نقص الطاقة والفساد. في حين تختبر الشركات الصغيرة زياراتٍ أقلّ من السلطات المحليّة كالمحافظة ووزارة الصحّة ومسؤولي الجمارك في المناطق التي أعيد السيطرة عليها، إلّا أنّ الاستثمارات الأكبر والّتي ترسل شاحناتٍ إلى دمشق ومناطق أخرى، كان عليها حساب تكلفة الرشاوى والإتاوات في انتاجها ونقلها للبضائع.

ومن الشركات البارزة أيضًا شركة زنوبيا للسيراميك، المملوكة لمحمد السحّار، نائب رئيس غرفة صناعة دمشق وريف دمشق السابق[40]. تمتلك الشركة مستودعاً كبيراً ومركز توزيعٍ في عربين، بجوار مصنعها القائم في مدينة عدرا. أُغلقت هذه المنشأة خلال فترة الحرب، لكن أعيد افتتاحها في عام ٢٠٢٣.

كان التغيّر الرئيسيّ في اقتصاد عربين هو غياب الشركات متوسّطة الحجم. عانت العديد من الشركات في عربين من خسائر كبيرةٍ خلال الحرب بسبب الدمار، كما بسبب النهب من قبل المحليّين خلال الحصار، ومن قبل القوّات الموالية عندما استعاد النظام السيطرة على المنطقة. لذلك، اضطر البعض إلى بيع مستودعاتهم وإغلاق أعمالهم بالكامل. لم يعد العديد من المستثمرين الّذين كانوا يشغلون مستودعات صناعيّةً كبيرةً موجودين. وبسبب المخاوف الأمنيّة المستمرّة، لا تزال المستودعات[41] العاملة في المنطقة، والّتي تعمل في المقام الأول في تجارة الأخشاب، تتطلّب توظيف حرّاسٍ، وهو ما قد لا يكون ممكناً لجميع الشركات.

38 مقابلة مع مدير شركة تجهيزات طبية وصاحب شركة اتصالات في دمشق آب ٢٠٢٢.

39 الموقع الرسمي لشركة الدرّة، صفحة مجلس إدارة الشركة، تاريخ الولوج ٧ نيسان ٢٠٢٣ https://aldurra.com/main/board

40 محمد السحار: سيراميك زنوبيا نافست عالميا في ظروف الحرب. المشهد أونلاين. يوتيوب، ٣١ تشرين الأول ٢٠١٩ https://www.youtube.com/watch?v=VRPetpgixq4

41 حوار مع صاحب ورشة ملابس في عربين، ١١ آذار ٢٠٢٣.

العمل المستمرّ

يواصل السكان الأصليون لعربين - الّذين لم يغادروا المدينة قط أو عادوا إليها بعد أن استعادها النظام - العيش فيها وكسب رزقهم. وينطبق هذا بشكلٍ خاصٍّ على ذوي الدخل المنخفض الّذين يفتقرون إلى الوسائل اللازمة للانتقال وتأسيس حياةٍ جديدةٍ لأنفسهم في مكانٍ آخر. وفي أعقاب استعادة المدينة من قبل النظام، شهِدت عربين زيادةً في أعمال البناء نتيجةً لضرورة إصلاح الأضرار التي لحقت بها خلال فترة الحرب وعمليّات النهب التي أعقبتها. شمل ذلك إعادة بناء الجدران ووضع بلاطٍ جديدٍ واستبدال النوافذ والأبواب وإصلاح السباكة. وفي المقلب الآخر، شكّلت تكاليف إعادة تأهيل المنشآت المغلقة والمتضرّرة عقبةً كبيرةً أمام العديد من أصحاب الأعمال. جعلت زيادة تكاليف مواد البناء، والّتي ارتفعت بسبب العقوبات على الواردات وكذلك التضخم، عمليّة التأهيل أكثر تكلفةً ممّا يمكن أن يتحمّله العديد من أصحاب الأعمال.

تقوم ورش النجارة الصغيرة بتزويد البلدة والمناطق المحيطة بها بمواد البناء الخشبيّة مثل الأبواب والنوافذ. وبينما قد تكون جودة المنتجات منخفضةً نسبيّاً، تركّز الورش بشكلٍ أساسيٍّ على تلبية احتياجات السوريّين من ذوي الدخل المنخفض في المناطق المجاورة، وليس الأشخاص الأكثر ثراءً من مدينة دمشق الّذين كانوا الزبائن الرئيسيّين قبل الحرب.

من الناحية الإيجابية، أُعيد فتْح ما يقدَّر بنحو ٣٠٠ ورشة عملٍ في عربين[42]. استأنفت ورش الخياطة والملابس عمليّاتها، مستفيدةً من توفّر الطاقة عبر نظام الأمبيرات لتشغيل آلاتها. تجتذب هذه الورش الشركات في دمشق، حيث لا تمتلك الكثير منها نظام الأمبيرات حتّى الآن، كما تستقبل أيضاً طلباتٍ من منظّماتٍ غير حكوميّة دوليّة[43]. تقدّم بعض الشركات تدريباتٍ عمليّةً للنساء، ممّا يوفر لهنّ دخلاً ويمنحهنّ مهارات حياتيّة تمكينيّة[44].

تتوفّر في عربين مجموعةٌ متنوّعةٌ من المتاجر الّتي تبيع سلعاً تتراوح بين الألعاب، والملابس، والإكسسوارات، والهواتف المحمولة، وصولاً إلى البقالة. وعلى غرار المناطق الأخرى الّتي يسيطر عليها النظام، تكون معظم السلع المستوردة الّتي تعرضها هذه المتاجر منتجاتٍ ذات جودةٍ زهيدةٍ مصنوعةً في الصين. في حين أنّ الخضروات واللحوم متوفّرة محليّاً، فإنّ الطلب الاستهلاكيّ ضئيلٌ بسبب انخفاض القدرة الشرائيّة للسوريّين. بالإضافة إلى ذلك، قد يكون من الصعب العثور على زبائن خارج المنطقة المحيطة مباشرةً، حيث لا يزال سكان مدينة دمشق ينظرون إلى المنطقة على أنّها منطقةٌ محظورةٌ.

يعمل غالبيّة سكّان عربين في القطاع الصناعيّ، مع وجود نسبةٍ صغيرةٍ فقط تعمل في قطاع الخدمات. خلال فترة الصراع، شَهدت نسبة توظيف النساء زيادةً كبيرةً، مدفوعةً بشكلٍ أساسيٍّ بنُدرة الأيدي العاملة من الذكور وفقدان الرجال كمعيلين أساسيّين للأسرة بسبب الحرب. كما وازدياد الحاجة إلى دخل إضافيٍّ أثناء الحصار والأزمات الاقتصاديّة التي أدّت إلى ارتفاع تكاليف الطعام والسلع. امتدّت مساهمة النساء إلى قطاعاتٍ مختلفةٍ، مثل التعليم والصيدلة وتوفير المساعدات الطبيّة. كما وأسهم الانخراط النشط في المنظّمات غير الحكوميّة خلال فترات الصراع في تعزيز حضورهنّ في المساحات العامّة. ولأنّ عربين كانت ملاذاً لأشخاصٍ من مناطق أخرى في الغوطة، قادت العديد من النساء المحليّات مشاريع المجتمع المدنيّ في المنطقة[45]. وبينما فضّلت العديد من النساء العمل من المنزل وصنع منتجاتٍ يدويّةٍ كالمربّيات والتطريز، فضّلت أُخريات الانضمام إلى ورش العمل والمصانع للعمل خارج منازلهنّ. مع الأسف، فإنّ القطاع الّذي انخرطت فيه النساء تاريخيّاً بكثافةٍ، وهو الزراعة، قد تراجع بسبب ندرة المياه.

في أعقاب استعادة السيطرة على عربين، شهدت الأنشطة الاقتصاديّة والمبادرات انتعاشاً ملحوظاً مقارنةً بسنوات الصراع. وعلى الرغم من زيادة فرص العمل، إلّا أنّ عوائد المستثمرين لم تشهد نموّاً كبيراً. ونتيجةً لذلك، اضطر سكان عربين إلى الابتكار والاعتماد على مواردهم للحفاظ على سبل عيشهم، خاصّةً في ظل الأزمة الاقتصاديّة المستمرة. ومن بين الموارد المتاحة، تلعب منظّمات المجتمع المدني وشبكات الشتات دوراً حيويّاً كطوق نجاة للسكان، حيث تُقدّم دعماً لا غنىً عنه يعتمد عليه المجتمع بشكلٍ كبيرٍ.

42 «تحسن تدريجي للخدمات في عربين.. والأهالي يطالبون بالمزيد - فيديو»، سانا، ٢٠ تشرين الأول ٢٠١٩ https://www.sana.sy/?p=1038651

43 حوار مع صاحب ورشة ملابس في عربين، ١١ آذار ٢٠٢٣.

44 مقابلة مع أحد موظفي المجلس النرويجي للاجئين (NRC)، ٢٢ تشرين الأول ٢٠٢٠.

45 حوار مع سيدة أسست مجموعة شعرية في مركز اجتماعي في عربين عام ٢٠١٣، ٨ أيار ٢٠٢١.

قاعدة المجتمع المدنيّ

كان المجتمع المدنيّ نشطاً للغاية خلال سنوات سيطرة المعارضة، حيث استجابت جميع أنواع المنظّمات لاحتياجات السكّان المحاصَرين، معتمدةً على الموارد والتمويل اللذان أُتيحا لها. وبعد استعادة قوّات النظام السيطرة على البلدة، أصبح العمل في المجال العام خلال سنوات الحرب هدفًا لقوّات الأمن التابعة للنظام، والتي تعاملت مع الموضوع كتهمةٍ سياسيّةٍ وسببٍ للاعتقال[46]. تسبّب هذا في تراجع السكّان عن الانخراط في الأنشطة المدنيّة داخل الغوطة الشرقيّة، مفضّلين المشاركة بهذه الأنشطة في أماكن أخرى، أي في المناطق الّتي تسود فيها الأقليّات الدينيّة، مثل بلدة جرمانا. ومع ذلك، تجد المنظّمات غير الحكوميّة السوريّة والشخصيّات البارزة في الشتات طرقاً إبداعيّةً لدعم عربين، مثل الضغط على المنظّمات غير الحكوميّة الدوليّة الأخرى، وإخفاء وتمويه مشاريعها على أنّها أنشطةٌ اقتصاديّةٌ في ظل مناخٍ أمنيٍّ صعبٍ.

اضطرّ الأفراد الّذين بقوا في المنطقة، بعد استعادة النظام السيطرة عليها، أن يجدوا طرقًا للعيش تحت سلطة النظام الصارمة. لقد أصبحوا أكثر يقظةً وحذراً، اذ يمكن اعتبار أيّ ارتباط محتملٍ بتمويلٍ خارجيٍّ أو معارضٍ كاتّهامٍ بدعم الإرهاب، مما قد يؤدّي إلى اتّهاماتٍ خطيرةٍ. وفي الوقت الحاليّ، تمّ دمج المجتمع المدنيّ في المنطقة في كلٍّ من الهيئات الحكوميّة وشبه الحكوميّة، بما في ذلك منظّمات مثل الهلال الأحمر العربيّ السوريّ (SARC)، والجمعيّات الخيريّة الراسخة[47]. بينما تعمل المنظّمات غير الحكوميّة الدوليّة، والتي تتّخذ من دمشق مقرّاً لها عادةً، من خلال هذه الهيئات، يواصل الفاعلون الاقتصاديّون والمهنيّون المحليّون المساهمة بخبراتِهم ودعم المبادرات المجتمعيّة بشكلٍ مستقلٍّ[48].

من المنظّمات المحليّة المعروفة هي منظمة «سراج» غير الحكوميّة، والّتي تمثّل الشبكة التي تُسهّل الأنشطة تحت سيطرة النظام. تأسّست المنظمة في عام ٢٠١٨، ويترأسها أحد أقارب رئيس بلديّة عربين ومدير الأوقاف في ريف دمشق. تتعاون منظّمة «سراج» مع العديد من الوزارات والمنظّمات لتقديم المساعدات والخدمات للمجتمع. تقدّم المنظّمة، بالشراكة مع وزارة الأوقاف، مساعداتٍ غذائيّةً ودوراتٍ محو الأميّة واللغة الإنجليزيّة، بالتعاون مع وزارة الثقافة. كما تعمل مع الأمانة السوريّة للتنمية لتقديم المساعدة القانونيّة ومبادرات التوعية، وتشارك الهلال الأحمر العربيّ السوريّ وبرنامج الغذاء العالميّ في توزيع المساعدات النقديّة والغذائيّة[49].

تظلّ المحسوبيّة مشكلةً شائعةً في العمل الخيريّ في سوريا. خلال مرحلة استعادة النظام السيطرة على المناطق، غالباً ما سهّل المتطوّعون عملهم من خلال وسطاء، مثل المخاتير (قادة إداريّين محليّين)، تكون الأولويّة في توزيع المساعدات عادةً لعوائل شهداء الجيش السوريّ كمستفيدين[50]. ومع ذلك، تواجه العديد من الجمعيّات الخيريّة المحليّة في ريف دمشق تحدّياتٍ في الوصول إلى الأشخاص المحتاجين. كما وقد لا يكون العديد من السكّان المحلّيّين على علمٍ بكيفيّة الوصول إلى الخدمات والمساعدات، مما يؤدّي إلى سوء فهمٍ واتّهاماتٍ بالمحسوبيّة أو الافتقار إلى الشفافيّة.

تتّخذ المنظّمات غير الحكوميّة الدوليّة نهجاً حذراً في التعامل مع المشاريع داخل المناطق التي استعاد النظام السيطرة عليها، وتركّز على برامج محدّدةٍ قائمةٍ على المهارات. تستهدف غالبيّة برامج سبل العيش في عربين النساء، خاصّةً في مجال الخياطة، وصنع الحقائب والإكسسوارات، وتصنيع منتجات التنظيف. هناك مبادراتٌ أخرى تركّز على إعادة التدوير، وصنع الشموع، وتقديم تدريباتٍ لإتقان اللّغة الإنجليزيّة ومهارات الحاسوب[51]. وفي المقلب الآخر، في المناطق التي تقطنها الأقليّات الدينيّة وفي دمشق، قد تجد المشاريع ذات الطابع الفكريّ والإبداعيّ مساحةً أكبر، نظراً لوجود مستوىً أقلّ من الرقابة السياسيّة من قبل النظام[52].

يقدّم مركز التنسيق الروسي أيضاً مساعداتٍ غذائيّةً وقرطاسيّة للمدارس بشكلٍ رمزيٍّ[53]. كما يقدّم المركز المساعدة لكنيسة مار جرجس في عربين وللمسيحيّين الشرقيّين، وهم الطائفة الرئيسيّة التي تدعمها روسيا. غالباً ما تعمل مثل هذه المبادرات الإغاثيّة على نطاقٍ صغيرٍ وتخضع لسيطرة أمنيّةٍ شديدةٍ. مع ذلك، فإنّها تحظى بتغطيةٍ واسعةٍ في وسائل الإعلام السوريّة.

يعتمد السياق المجتمعيّ المدنيّ في عربين بشكلٍ أساسيٍّ على الجهود الخاصّة الّتي يبذلها السكّان المحلّيّون. يتولّى الأفراد توظيف خبراتهم ومبادراتهم الشخصيّة بشكلٍ سريٍّ لتنفيذ تغييراتٍ متواضعةٍ، دون جذب الانتباه غير المرغوب فيه. يتولى البعض مسؤوليّة إعادة تأسيس المرافق اللازمة للوصول إلى الخدمات الأساسيّة، بينما يستند آخرون إلى الثقافة الإسلاميّة كأساسٍ للمساعي الخيريّة. يُسخّر هؤلاء الزكاة لتقديم المساعدات الضروريّة للمحتاجين، أو يخفون دعمهم في شكل شراكاتٍ تجاريّة[54]. في هذا السياق، من الأفضل تنفيذ مبادرات المجتمع المدنيّ بمرونةٍ وحذرٍ.

46 ويشمل ذلك الإغاثة وسبل العيش والدعم الطبي والنفسي وتمكين المرأة وحماية الأطفال وغيرها.

47 تعتبر منظمة الهلال الأحمر العربي السوري ومنظمة الأمانة السورية للتنمية من المنظمات المرتبطة بالنظام وأدوات لتنفيذ سياساته.

48 الخضر، محمد. «أهالي المنطقة يساعدون في إعادة تأهيل مدارس عربين». قناة الميادين. فيديو يوتيوب، ١٧ آب ٢٠٢١. https://www.youtube.com/watch?v=DSajRFCyS-F.

49 الأمانة السورية للتنمية، والمعروفة أيضًا باسم الأمانة، هي منظمة غير حكومية أسستها أسماء الأسد، زوجة الرئيس السوري بشار الأسد. نبذة عن الشركة: الأمانة السورية للتنمية، تقرير سوريا، ١١ نيسان ٢٠٢٣ https://bit.ly/46C7SyG

50 «أكثر من ١٣٠٠ وجبة غذائية يومياً من مطبخ جمعية سراج الخيرية في عربين - فيديو». سانا ١١ نيسان ٢٠٢٣. https://www.sana.sy/?p=1874399

51 المجلس النرويجي للاجئين، مركز منظمة إغاثة كنيسة شمس، مركز الخطوة الأولى للنساء، لجنة التنمية البطريركية في كنيسة مار أفرام السريانية

52 منتدى نيسان الثقافي في جرمانا يقيم ندوات مع كتاب وفعاليات من منظمات المجتمع المدني، https://www.facebook.com/NessanOrganization/

53 «توزيع المساعدات المقدمة من روسيا الاتحادية في عربين بريف دمشق». سانا ٤ شباط ٢٠٢٣ https://sana.sy/?p=1830965

54 الزكاة مصطلح مالي إسلامي، وباعتبارها أحد أركان الإيمان، فإنها تتطلب من جميع المسلمين التبرع بجزء من ثروتهم للجمعيات الخيرية.

الخاتمة

إنّ الهدف من هذه الورقة هو فهم ودراسة وضع مدينة عربين بعد توقّف العمليّات العسكريّة فيها، مع التركيز على تنميتها وتعافيها. كان التقدّم الذي أحرزته عربين مدفوعاً في المقام الأول بجهود السكّان المحليّين لتلبية احتياجاتهم، وليس من خلال مبادرات التعافي تُقدّمتها الحكومة في دمشق. بل على العكس، أدّت أزمة الطاقة والتضخّم والحاجة إلى إعادة الإعمار بعد الدمار الواسع، إلى تفاقم التحدّيات الّتي تواجه التعافي الاجتماعيّ والاقتصاديّ لعربين بشكلٍ كبير. إنّ العقبات مثل نقص الخدمات الحكوميّة، وتغوّل الأجهزة الأمنيّة، والفساد، أعاقت إمكانيّة الإنعاش الناجح. من الناحية الاجتماعيّة والاقتصاديّة، فإنّ المنطقة بعيدةٌ كلّ البعد عن الحكم الفعّال من قِبَل النظام، باستثناء تحصيل الإتاوات من خلال نقاط التفتيش وفرض جَوٍّ أمنيٍّ بالقوّة.

لقد أصبحت المنظّمات غير الحكوميّة الدوليّة لاعباً مهمّاً في توفير الخدمات الاجتماعيّة والأساسيّة لسكّان عربين. ومع ذلك، فإنّ الحساسيّات السياسيّة القائمة هناك تفرض عليها العمل بحذرٍ. كثيراً ما تَفشل هذه المنظّمات في الوصول إلى جميع الأفراد المحتاجين، وأحياناً ما تكون عدالتها موضع نزاع. فهناك اتّهاماتٌ بأنّها تلبّي احتياجات فئاتٍ سكّانيةٍ محدّدةٍ، أو أولئك الّذين لديهم إمكانيّة الوصول إلى شبكاتٍ أو انتماءاتٍ معيّنةٍ.

وأخيراً، يعتمد التعافي الحاليّ في عربين على اللاعبين المحليّين داخل سوريا، كما يعتمد أيضاً، وبشكلٍ كبيرٍ على الأسواق المحليّة وأموال المساعدات، ممّا يحدّ من فرص التنمية واسعة النطاق بشكلٍ إضافيٍّ. على الرغم من المحاولات للتغلب على مثل هذه التحدّيات، لا يمكن توسيع نطاق الجهود المحليّة دون وجود خطّةٍ وطنيّةٍ شاملةٍ.

إنّ الاستثمار في إعادة تأهيل البنية التحتيّة من شأنِه أن يساهم بشكلٍ كبيرٍ في معالجة التحدّيات التنمويّة في المنطقة. نظراً لغياب خطّةٍ تقودها الدولة لتمويل وتنفيذ مشاريع البنية التحتيّة الحديثة على نطاقٍ واسعٍ، فمِن المتوقّع أن تظلّ عربين دون تنميةٍ في المستقبل المنظور. ومع ذلك، فإنّ استكشاف القنوات التي أنشأتها الشبكات المحليّة، والاتّصالات مع مجموعات الشتات، والانخراط مع المنظّمات غير الحكوميّة، من شأنِه أن يقدّم دعماً قيّماً. كما أنّ الاستثمار في حلولٍ مبتكرةٍ وصديقةٍ للبيئة لمعالجة الأزمات المستمرّة يبرز كوسيلةٍ حاسمةٍ لدفع التقدم في تعافي المنطقة.

FRIEDRICH EBERT STIFTUNG